السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

المد العثماني إلى الحوض الغربي للمتوسط

أ.د. عبد القادر فكاير

أخذ السلطان سليم الأول على عاتقه مهمة بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الأوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقد عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في هذه المنطقة ظهور حركة عامة بين قادة البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانيهم وسواحلهم من الأطماع الأوربية ، والعمل على تأمين وصول المهاجرين العرب من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492.
ومن أبرز أولئك القادة البحاران عروج بن يعقوب وأخيه خير الدين اللذان كانا لديهما ينشط في البحر المتوسط ، وكان عروج منذ سنة 1510 يتولى إدارة جزيرة جربة الواقعة شرقي تونس بموافقة السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد بن الحسن 1494 – 1526 خمس الغنائم التي يحصل عليها من نشاطه البحري.وكان الأخوان يوجهان جزءا من نشاطها العمل على إنقاذ الاندلسيين ونقلهم إلى السواحل المغرب العربي ، فقد تمكنا من إنقاذ الآلاف منهم.
وإثر احتلال الإسبان لمدينة بجاية اتجهت أنظار سكانها إلى عروج وأخيه خير الدين لإنقاذهما ، وقد لبى الأخوان الدعوة ، فقاما بعد محاولات، لكنهما أخفقا في تحريرها بسبب مناعة حصونها. ثم انتقلا مدينة جيجل وأصبحت مركزا لنشاطهما منذ سنة 1514.

قرر عروج توجيه جهوده نحو تحرير ميناء الجزائر بعدما تسلم رسائل استغاثة من بعض الأهالي ، منها رسالة الشيخ ابو العباس بن احمد قاضي . ثم اتصل عروج بأخيه خير الدين الذي كان في تونس، فخرج خير الدين ومعه 21 سفينة تحمل 1500 مقاتل ، أما عروج فقد غادر جيجل على رأس قوة برية من 800 مقاتل، وجند في طريقه 5000 شخص من أفراد القبائل وذلك في سنة 1516. أدرك الاسبان أن قوات عروج أصبح يشكل تهديدا خطيرا لوجودهم في المنطقة ، فنجحت القوة الاسبانية في القضاء عليه سنة 1518 في معركة بين وهران وتلمسان.

أدرك خير الدين خطورة الاسبان بعد مقتل أخيه عروج ، أرسل بعثة إلى استانبول برآسة أبو العباس بن احمد بن قاضي لطلب الدعم العثماني. استقبلت البعثة بحفاوة كبيرة من قبل السلطان ، الذي قبل هديتهم ،واطلع على خطابهم وطلبهم المتعلق بطلب الحماية ، أدرك سليم الأول الأهمية الإستراتيجية ، التي تحتلها بلادهم وسائر السواحل المغربية المطلة على البحر المتوسط ، بالنسبة لتوسيع نشاط البحرية الإسلامية في هذه المنطقة ، والذود عن حمى المسلمين. وبناء على تلك الاعتبارات وافق السلطان على طلبهم ، وأثناء عودتهم ؛ أرسل

معهم راية ، وخطابا إلى أهل مدينة الجزائر يعلمهم فيه أنهم أصبحوا ممن تشملهم عنايته ، كما أرسل معهم بعض قطع المدفعية ، وكميات من الذخيرة الحربية، بالإضافة إلى ألفي جندي ببنادقهم ، كما رخص بانتقال المتطوعين إلى الجزائر. فاستجاب لنداء السلطان أربعة آلاف متطوع ، الذين التحقوا بالجزائر. كما منح السلطان خير الدين لقب "بايلرباي " أي أمير الأمراء. وهكذا أصدر السلطان فرمانا يضع حمايته على الجزائر بطلب من الجزائريين أنفسهم ، وذلك في سنة 1519 ، أي بعد حملة مونكادي ضد الجزائر . وهكذا أصبحت الجزائر تعيش منذ هذه الفترة عهدا جديدا في كنف مساندة القوة العثمانية . وقد نجح خير الدين في تحرير قلعة البينون يوم 27 ماي سنة 1529 بعد ضربه عليها، وبذلك خلص مدينة الجزائر من نيران المدفعية الاسبانية التي كانت تسلط عليها من هذه القلعة التي لم تكن تبعد عن المدينة أكثر من 300 متر .

تونس:

استدعي السلطان سليمان القانوني خير الدين باربروس إلى استانبول ليتفق معه حول الاجراءات التي يمكن اتخاذها لإيقاف الزحف الأوربي والعمل على تثبيت أقدام العثمانيين في الغرب العربي كجزء من عملية توسعهم في الوطن العربي.
قام خير الدين باعادة بناء الاسطول الجزائري ، واستعد لاقتحام تونس وضمان حرية التنقل بين شواطئ البحر المتوسط ، وفي 18 نيسان سنة 1534 استولى بسهولة على مدينة تونس بعد ان اغتنم الثورة التي نشبت فيها ضد حاكمها أبي محمد الحسن الحفصي حليف الاسبان.
وسرعان ما استنجد الحسن بالاسبان الذين هرعوا إلى تجميع اسطولهم في جوان سنة 1535 أمام ساحل سردينا والتوجه نحو تونس والاصطدام مع قوات خير الدين ومحاصرتها، عندئذ اضطر خير الدين للانسحاب إلى ميناء عنابة ثم إلى ميناء الجزائر، أما الاسبان فقد احتلوا مدينة تونس يوم 21 تموز 1535 وأعادوا الحسن إلى عرشه بعد أن عقدوا معه اتفاقا ضمن لهم مصالحهم وكان من أبرز بنود الاتفاق. وقد ظلت تونس تحت السيطرة الإسبانية إلى غاية سنة 1574، حيث تم تحريرها وأصبحت ولاية عثمانية.

ليبيا:

لقد قام الاسبان باحتلال لميناء طرابلس في سنة 1510، وفي سنة 1535 سلمت إلى فرسان القديس يوحنا بعد ان اشترطوا عليهم الدفاع عنهم ضد المسلمين ، وكان هذا التسليم ضمن اتفاقية طالب فيها الفرسان من شارل الخامس تسليم مالطة لتكون قاعدة لهم يغزون منها البلاد الإسلامية. وفي أعقاب تولي خير الدين قيادة الاسطول العثماني سنة 1533 وضع خطة للاستيلاء على طرابلس ، إلا ان التدخل الأسباني في سنة 1535 أدى إلى فشل الخطة ، وفي 18 سبتمبر سنة 1551 نجحت السفن العثمانية التي تجمعت في شرق البحر المتوسط ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية. أما إقليم برقة فقد كان تحت السيطرة العثمانية منذ الاستيلاء على مصر وقد أعلن زعماء إقليم فزان من أسرة بني محمد ولاءهم للعثمانيين. تولى حكم ليبيا عدد من الولاة العثمانيين من أمهم درغوث باشا ، الذي وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها، كما أنشأ فرق الانكشارية هناك على أن اهتمام العثمانيين بليبيا ظل عسكريا بالدرجة الأولى واقتصر نفوذهم على المدن الساحلية .

المغرب

أما المغرب فقد ظلت بعيدة عن متناول العثمانيين وحكمهم المباشر وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية الناشئة منذ منتصف القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها القادة العثمانيون لإخضاعها ، إلا أن ذلك لم يتحقق لسببين مهمين:

1: النصر الكبير الذي حققه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة 1578 الذي جعلهم محط تقدير السلطان العثماني ورغبته في إيقاف الحملات الموجهة ضد مراكش .

2: ظهور شخصية المنصور السعدي الذي سعى للمحافظة على استقلال المغرب وعدم الخضوع للسيطرة العثماني.